أثر « الآخر » فى تكوين الشعور بالذات*

تأليف الدكتور هنرى فالون

أستاذ علم نفس الطفل بالكوليج دى فرنس — باريس

إذا كان هناك رأى شائع فى علم النفس فهو الاعتقاد بأن الشخص لا بد له من أن يشعر بذاته شعوراً واضحاً قبل أن يمكنه تصور « ذات » الآخرين ، وأن الذات الشخصية تنكشف لكل منا عن طريق الحدس أو الخبرة المباشرة فى حين أننا لا نصل إلى معرفة ذات الآخرين إلا عن طريق المماثلة ، وأخيراً أنهما شيئان متميّزان منذ البداية وأن كل ما يمكن أن يحدث هو إسقاط الذات الشخصية على ذات الآخرين (١)

وقد اتفق الفلاسفة ، قروناً طويلة ، على ربط الشعور بحقيقة فردية فى صميمها (٢) يمثل الشعور فيها القدرة على الاستبطان . وفى قدرة الاستبطان وحده أن يتصل بهذا العالم الخفى المغلق ، عالم الحساسية الذاتية . ويصبح إذن من الضرورى أن نفترض وجود الشعور فى غيرنا من الأشخاص ، غير أنه لا توجد صلة مباشرة تربط بين شعور الشخص وشعور الآخرين . ويكون انفصال كل شعور عن غيره ، كأنهما شيئان غير متداخلين، انفصالاً كلياً محققاً منذ البداية . ولا يتم الاتصال بين الشعورين فى زعم هؤلاء الفلاسفة إلا بعد حين ، غير واجد ما يعتمد عليه سوى افتراض وجه شبه بين الشعورين ؛ فليس إذن هناك تداخل متبادل بينهما .

---

* نشر الأصل الفرنسى لهذا المقال فى هذه المجلة عدد يونيو ١٩٤٦ . وننشر هنا الترجمة العربية مع شىء من التعليق سواء فى الصلب أو فى الهامش لتوضيح ما قد يغلق على القارىء لو نقل النص الأصلى كما هو بما فيه من تركيز وتلميح (يوسف مراد)

(١) راجع فى العدد الثانى (أكتوبر ١٩٤٥) فى باب النصوص ما قاله جيوم عن المنهج الإسقاطى (ص ٢٣٥) .

(٢) يقصد النفس

من الواضح أن فيلسوفاً روحانياً مثل مين دى بيران[١] لا بد أن يذهب إلى أن العقبة الخارجية هى التى تسمح للنفس بأن تكشف ذاتها وذلك بحملها على بذل الجهد[٢] الذى يجعلها تدرك ذاتها فى صورة قوة قادرة على أن تحدث آثاراً مختلفة . ولكن لا يضطرها الجهد إلى أن تنفصل عن ذاتها ؛ فالوجود الذى تثبته هو وجودها فى حين أن وجود الآخرين ليس سوى إسقاط وجود الذات على الآخرين .

وقد زادت بحوث بياچيه[٣] هذا الرأى التقليدى شيوعاً وشهرة ، أى الرأى القائل بأن الشعور بالذات أمر فردى فى جوهره ومبدئه . فالطفل يبدأ حياته النفسية وهو فى حالة انطواء ذاتى تام[٤] ، ثم يمر بمرحلة التركيز حول الذات[٥] قبل أن يتمكن من تصور الآخرين فى موقف شركاء تقوم بينه و بينهم علاقات من التبادل ، إذ أنهم يشاركونه الوجود و يسوغ لهم أن ينظروا إليه كما ينظر إليهم و إن اختلفت وجهة النظر . وهذا الانتقال الذى يتم فى الشعور حول سن السابعة ، من حالة الاعتقاد بأن الشخص هو وحده موجود[٦] إلى الاعتقاد بتعدد الأشخاص هو ما ينظم بطريقة أساسية تطور الطفل من الناحية العقلية .

---

(١) Maine de Biran (١٧٦٦ — ١٨٢٤) فيلسوف فرنسى اشتهر بيومياته وبرع فى استخدام الاستبطان . له بحوث قيمة فى « العادة » وفى « تأثير الجسم فى النفس » .

(٢) effort . فلسفة مين دى بيران كلها قائمة على تحليل الشعور بالجهد

(٣) Jean Piaget (١٨٩٦ —) أستاذ علم النفس بجامعة جنيف فى سويسرا . نشر عدداً كبيراً من المقالات والكتب فى نشوء العقل وتكوين أحكام الطفل وصلة تفكيره باللغة الخ . وقد نقلت معظم كتبه إلى اللغة الإنجليزية .

(٤) autisme — يستخدم بياچيه هذا المصطلح الذى وضعه بلولير Bleuler العالم السويسرى في الأمراض العقلية ، لوصف حالة المرضى بالفصام (شيزوفرينيا) ، ليشير إلى حالة الانطواء الذاتى التام الذى يكون عليه المولود الحديث . ومعنى هذا اللفظ قريب من معنى الانطواء introversion — وهذا اللفظ الأخير من وضع كارل يونج C. Jung عالم سويسرى ومنشئ مدرسة علم النفس التحليلى — غير أن autisme فى اصطلاح بلولير يفيد المرض فى حين أن introversion يشير إلى اتجاه فى الشخصية قد يصبح مرضياً في بعض الحالات ، ويستعمل بعضهم لفظ dereism « التفكير الاجترارى » بمعنى autisme غير أنه لا يمكن التحدث عن تفكير اجترارى أو غير اجترارى لدى المولود الحديث . وأحلام اليقظة عند ما يستفحل أمرها ضرب من التفكير الاجترارى

(٥) égocentrisme : تقدير الأمور من وجهة نظر الذات وحدها وهو اتجاه قريب من الانطواء . ويختلف عن الأنانية أو الأثرة égoïsme كما يختلف عن الصلف والادعاء égotisme

(٦) [وأن كل مايعتقد أنه موجود فى الخارج =

تكون حالة الطفل العقلية فى أول الأمر حالة انطواء ذاتى تام ، أى أن الطفل كائن مستغرق كليّةً فى ذاته ، غريب عن العالم الخارجى مثل هؤلاء المرضى بالفُصام الذين أوحت حالتهم النفسية إلى بلولير[1] بوضع لفظ autisme ليبين أن ليس هناك شىء خارج أنفسهم . وعلى هذا يبتدئ الطفل حياته ، فى نظر پياچيه ، فيما انتهى إليه الفصاميون من الانحلال النفسى . ويكون الدافع الوحيد لاستجابات الطفل — وهو مقطوع الصلة بالبيئة الخارجية — تلك النواة الداخلية المكونة مما يتبقى بعد إزالة كل ما يربطنا بالبيئة الخارجية ، أى المكونة من مجموعة من الحاجات والشهوات الأولية .

أما التركيز حول الذات فإنه يُرجع كل إدراكات الطفل واهتماماته إلى ذاته . فقد تكشّف له العالم وامتدت آفاقه من حوله ، غير أنه هو الذى يحتل مركز العالم ، أى أن كل ما يحدث يبدأ عنده ويعود إليه . هو علة وجود الحوادث وليس مالها من دلالة إلا بالنسبة إليه . فمصير الأشخاص والأشياء واحد ، وهى ليست سوى أمور تضاف إلى شخصه ، فتفيده أحياناً أو تضر به أحياناً أخرى ، ومهما يكن من أمر فهى ليست مستقلة وما يقوم بينها من علاقات ليس سوى ما تعينه وجهة النظر الشخصية .

ولكى يتخلص من هذه الكتلة الذاتية التى تتجمع فيها كل الانطباعات والمعانى التى تأتيه من الأشياء ، يجب أن يتخلى الشعور عن موقفه الفردى البحت ليصير اجتماعياً ، فيصبح قادراً على تصور أفراد متميزين عنه على الرغم مما يشاركونه من

= ليس سوى تصورات ذاتية .] ورد فى الأصل لفظ solipsisme من (solus وحده و ipse الذات) وآثرنا تفسير اللفظ بدلا من ترجمته . ومذهب السوليسيزم من المذاهب التصورية idéa-lisme المتطرفة . ونقترح ترجمة اللفظ بمذهب « الأنا وحدية » من (أنا وحدى موجود) على نمط ترجمة agnosticisme باللاأدرية من (لا أدرى)

(١) P.E. Bleuler (١٨٥٧ — ١٩٣٩) عالم سويسرى ، أستاذ الطب العقلى فى جامعة زوريخ . اختص فى دراسة ما كان يعرف بالجنون المبكر dementia praecox فحلل دلالة أعراضه من الوجهة السيكولوجية وأطلق عليه اسم الشيزوفرينيا (فصام) . وكتابه فى الطب العقلى من المراجع الهامة . وقد نقل إلى اللغة الإنجليزية Textbook of Psychiatry, 1924. p.p. 635

صفات وخصائص شعورية . فالمساواة فى الحقوق تقتضى نوعاً من التراضى بين شعور الشخص وشعور الآخرين . ويرمى هذا التراضى إلى تشيىء العالم فى الخارج [١] أى صبغه بصبغة موضوعية ، كما يرمى إلى تخفيف ما يقوم بين وجهات النظر المختلفة من تعارض أو تمييز ، وذلك بافتراض صدورها عن أصل واحد وأنها قابلة بأن تقاس بمقياس واحد مشترك وأنها تتضمن « ثوابتاً » [٢] تحقق الاتفاق والثبات على الرغ من التناقضات الظاهرة .

فالعقل الذى يقيم بين الأشياء علاقات موضوعية ، يرجع منشؤه فى نظر پياچيه إلى ضرورة إيجاد اتفاق أو نوع من العقد ير بط بين الأفراد منذ اللحظة التى يدرك فيها كل منهم أنه ما دام هناك أشخاص آخرون فلا يسوغ له أن يعتبر نفسه مقياس كل شىء ؛ أى منذ يبدأ يحس بضرورة الربط بين الأفراد ربطاً اجتماعياً . وعلى هذا لا يظهر اشتراك الآخر فى تكوين الشعور إلا متأخراً جداً . وسيتخذ هذا الاشتراك شكلاً يكاد يكون مجرداً بحتاً هو بمثابة الاعتراف بضرورة اعتبار الأفراد الذين يواجهون بعضهم بعضاً متعادلين [٣] ، وستكون نتائج هذا الاشتراك نتائج نظرية كتكوين المعانى الكلية اللاشخصية التى ستمكن الشخص من أن يستبدل بتأثراته الذاتية وسائل موضوعية من القياس و إقامة العلاقات .

* * *

إن فى حركة التقدم العقلى التى يشير إليها پياچيه ما هو صحيح هو الاتساع التدريجى الذى يطرأ على المجال الذى يسمح لنشاط الطفل ولميوله بالظهور والانتشار . ومن الواضح أن يكون هذا النشاط فى الأسابيع الأولى محصوراً فى أعضاء الجسم ومنصباً على الحاجات العضوية ؛ وتستمر هذه الحالة فى الشهور الأولى على الرغم من ارتقاء الوسائل التى يستخدمها الرضيع بعض الارتقاء . وهذا أيضاً ما يثبته

(١) objectiver : فصل المعنى عن الذات لجعله موضوعاً بتجسيمه فى الخارج

(٢) invariants اصطلاح مستعار هنا من العلوم الرياضية ويفيد معنى الكميات الثابتة .

(٣) [بحيث يمكن إحلال أحدهم محل الآخر]

فرويد [١] عند ما يركز الطاقة الجنسية [٢] فى أجزاء من الجسم ، كالفم والشرج ، مرتبطة بوظيفة التغذية . غير أنه لا يبدو أن فرويد يعتبر الشعور ظاهرة أولية ؛ فالشعور نتيجة التفاعل بين دافع الجنس ، كما يتمثل فى اللبيدو ، و بين ما يصطدم به هذا الدافع من عقبات وحدود . فلا وجود إذن لحالة انطواء ذاتى تام تعقبها حالة تركيز حول الذات ، أى أن الشعور ليس نظاماً مغلقاً سيتفتح فيما بعد عند ما يدرك الطفل ضرورة التفاهم فى البيئة الاجتماعية . ولكن ما يحدث فى الواقع هو خفض الشهوة وضبطها التدريجى : فبعد أن كان موضوعها غير واضح ، عليها أن تنفصل على التوالى من تلك الموضوعات التى تركزت فيها الشهوة على غير هدى [٣] . وليس الشعور شبيهاً بالخلية الفردية التى ستتصل يوماً ما بالهيئة الاجتماعية ، بل هو نتيجة الضغط الذى تفرضه مقتضيات الحياة الاجتماعية على اختلاجات غريزة غير محدودة المدى وهى غريزة الفرد الذى هو فى آن واحد ممثل الجنس ولعبته . ليست « الذات » إذن موجوداً أولياً ، بل هى فى نظر فرويد بمثابة تحديد تدريجي لطاقة جنسية تكون فى البدء غفلاً ثم تتعين بتأثير الظروف وتطور الحياة بحيث تخضع لأنظمة الحياة الشخصية والشعور الشخصى .

* * *

إن تشكل الذات بتأثير البيئة أو تشكل الشعور الفردى بتأثير الوسط الجمعى لا يرتبط حتماً بالصراع الذى صوره فرويد بين الغريزة الجنسية والأوامر الاجتماعية ؛

---

(١) Sigmund Freud (١٨٥٦ - ١٩٣٩) مؤسس مدرسة التحليل النفسى

(٢) ترجمنا هنا لفظ libido بطاقة جنسية ، وكان يمكن ترجمته بالشهوة الجنسية . ويجب أن نلاحظ بصدد هذا اللفظ أن معناه تطور فى مؤلفات فرويد نفسه . ففى كتبه الأولى كان يفيد الطاقة الجنسية ، ثم طاقة الغرائز سواء الغريزة الجنسية أو الشبقية أو غريزة الاعتداء أو الموت وفي هذه الحالة يفيد اللفظ بوجه عام الطاقة النفسية ، وبهذا المعنى الأخير يعود فرويد إلى دلالة اللفظ الأولى كما عينها كارل يونج في مؤلفاته عند ما استعار كلمة libido من اللغة اللاتينية .

(٣) يشير هنا الدكتور ڤالون بجملة وجيزة إلى مراحل الجنسية فى الطفل كما وضحناها فى مقالنا « نمو الطفل العقلى وتكوين شخصيته » فى العدد الأول من السنة الثانية من هذه المجلة ، يونيو ١٩٤٦ ص ١٠ — ١٨ .

بل ينتج هذا التشكل عن حالة القصور التى يظل عليها الطفل مدة طويلة بحكم بطء نموه ، ولم يكن فى إمكان هذا النمو البطىء أن يتم لولا النظام الاجتماعى وما يقدمه لأفراده من معونة[١] ، وقد سبق أن بينت فى كتابى « منشأ الخلق فى الطفل »[٢] شروط الاتصال الوثيق الذى يجعل الطفل يندمج فى بيئته ، كما بينت أيضاً مظاهر هذا الاتصال الأولى .

ليس المولود الحديث نظاماً مغلقاً ، بل هو فى البدء محروم من التماسك الداخلى ومعرض لشتى التأثيرات العرضية دون ما ضابط ولا توجيه . فاستجاباته متقطعة عابرة ، لاتؤدى إلا إلى صرف التوترات سواء كانت من أصل عضوى أو نتيجة تنبيهات خارجية ، وذلك بما يملك من وسائل . فحركات أطرافه لا تعود عليه بأى نتيجة عملية ، فهى عاجزة حتى عن أن تجعله يغير وضعه فى حالات الضيق والخطر ؛ فلا بد إذن من رعايته فى كل لحظة . وتكون جميع أرجاعه وردود أفعاله فى حاجة إلى ما يكملها ويعوض نقصها ، كما أنها تقتضى التأويل والتفسير . وقصوره عن تأدية أى عمل بنفسه يضعه تحت تأثير الحركات والمعالجات التى يقوم بها الآخرون فى قضاء حاجاته وستتشكل أوضاعه الحركية الأولى بفضل هذه الحركات .

ولكن قبل أن تعود حركات الطفل عليه بأى فائدة مباشرة فهى تثير فى بيئته الوساطات المفيدة الملائمة . وتتصل حركات الطفل خاصة بحالات الارتياح والضيق وبما يشعر به من حاجات ، فهى تابعة لمجموعات الأرجاع الوجدانية التلقائية أى للمجال الانفعالى . ولا تلبث هذه التعبيرات التلقائية طويلا حتى ترتبط ، تحت تأثير المجال الانفعالى ، بالاستجابات المفيدة الصادرة عن البيئة : فسيتحقق مثلا الارتباط بين تشنجات الغضب وبين الرضاعة أو حمل الأم طفلها بين ذراعيها للنزهة ، ويتم هذا الارتباط على نمط تكوين الأفعال المنعكسة الشرطية .

---

(١) راجع بهذا الصدد آراء أدلر فى كتاب « علم النفس الفردى » تأليف اسحق رمزى ص٦٢ وما بعدها. من منشورات جماعة علم النفس التكاملى. الناشر: دار المعارف للطباعة والنشر القاهرة ١٩٤٦

(٢) Les Origines du Caractère chez l'Enfant. Boivin, Paris.

ولكن هذا الارتباط الفسيولوجى البحت لا يلبث طويلاً حتى يتحد بارتباط آخر يجعل الأول ينتقل إلى مجال التعبير والفهم والعلاقات الفردية . وما يصل إليه الطفل من نتائج يحول بالتدريج مظاهره الانفعالية إلى تعبيرات مقصودة ، فتصبح حينئذ وسيلة للتأثير فى الآخرين ، وإن لم تكن النتيجة مضمونة فى جميع الحالات . وفى هذا ميدان جديد يسترعى انتباه الطفل وذكاءه الناشئ ، أما علاقات النجاح المحتمل تحقيقه فتتركز بسرعة فى الشخص الذى سيؤدى الخدمة التى ينتظرها الطفل. فحركاته وأوضاعه وأسارير وجهه ونبرات صوته ، كل هذا يندمج فى تيار التعبيرات التى تصبح مزدوجة التأثير : تأثير صادر عند ما يعبر الطفل عن رغباته وتأثير وارد[1] هو بمثابة ما تصادفه هذه الرغبات أو ما تثيره من استعداد الآخرين للاستجابة له .

ويتحقق هذا التبادل بسهولة مادام ملائماً لطبيعة الانفعالات ووظيفتها . فقد لوحظ تبكير الطفل فى الاستجابة لابتسامة الأم بابتسامة مثلها ، كأن هناك ضرباً من المحاكاة الانفعالية يفسر لنا ما تمتاز به الانفعالات من قدرة على الانتشار والعدوى ، كما أن هذه المحاكاة تبين لنا كيف تتحول انفعالات الجماهير بسهولة فائقة إلى اندفاعات قطيعية ، وكيف تنعدم فى الفرد وجهة نظره الشخصية وقدرته على ضبط نفسه ومراقبتها . فالانفعال يؤدى إلى الاندفاعات الجمعية و إلى صهر العقول الفردية فى بوتقة واحدة بحيث تصبح عقلاً مشتركا غامضاً ، كأننا بإزاء مشاركة تتلاشى فيها إلى حد ما الحدود التى يحرص الأفراد على إبرازها[2] والمحافظة عليها . وتظهر هذه المشاركة فى مرحلة سابقة لمرحلة شعور الشخص بذاته عند ما يثبت الشخص استقلاله الذاتى . والفرد لا يبدأ يدرك ذاته إلا خلال هذه الاندفاعات الانفعالية التى لاتسمح

---

(١) يستخدم هنا الدكتور فالون لفظين مقتبسين من مصطلحات فسيولوجية الجهاز العصبى إذ يميز بين الأعصاب المصدرة للتنبيه العصبى الحركى efférent والأعصاب الموردة للتنبيه الحسى afférent .

(٢) وقع هنا خطأ مطبعى فى النص الفرنسى المطبوع فى عدد يونيو ١٩٤٦ ص ٢٢٢ . فقد جاء فيه masquer بدلا من marquer

له بأن يميز نفسه جيداً من الآخرين ومن الموقف الكلى الذى تتفاعل فيه شهواته ورغباته ومخاوفه .

فالانفعال جانب من الحياة النفسية التى لم تتمايز بعد نواحيها بطريقة واضحة ، بينما تكون المراكز العصبية التى تضبط مظاهر الانفعال الحشوية والحركية تابعة لمناطق الدماغ الموجودة تحت اللحاء ، أى لمجموعة عصبية ظهرت وظائفها فى أثناء تطور الجنس قبل ظهور عمليات التصور والإرادة التى تضبطها المراكز العصبية العليا فى اللحاء . يبدو لنا إذن أن المرحلة الأولى من مراحل النمو النفسى هى ، على عكس النظرية التقليدية ، حالة عدم انفصال بين ما يرجع إلى الموقف الخارجى والشخص ذاته ؛ فكل مايصل إلى شعور الطفل من هذين المصدرين فى آن واحد يظل فى حالة اختلاط ، أوعلى أقل تقدير يمكن القول بأن التحديدات التى قد تتم ليست فى أول الأمر مايميز الذات عن الآخرين أو مايميز الفعل الشخصى عن موضوعه الخارجى : فاتحاد الموقف أو الوسط بالشخص يكون فى أول الأمر اتحاداً شاملاً غير متمايز النواحى .

وهكذا يبدأ الطفل ، ولن يصل إلى أن يميز ذاته من التأثرات التى ستنكشف له بالتحليل أنها ليست منه إلا خلال ما يقوم به من تمرينات وألعاب عدة تزداد وضوحاً كلما أحدثت فى نفسه مظاهر التوقع القلق أو الدهشة العنيفة أو الفرح . وقد سبق أن ذكرت هذه الألعاب القائمة على التناوب حيث يتكرر الفعل بعينه بحيث يكون الطفل على التناوب بإزاء الآخرين الفاعل والمفعول : كأن يوجه الضربة ويتلقاها . وبواسطة هذا التبادل فى الدور بينه وبين الآخرين يصل الطفل إلى إدراك كيفية الفصل بين من يفعل ومن يتحمل آثار الفعل . ولكن هذا التناوب الذى يجعل الطفل ينتقل من موقف الذات إلى موقف الآخر ، أو بعبارة أخرى هذه الحركة التى تجعل التأثير يصدر من الطفل ثم يرتد إليه لم تصل بعد إلى مرتبة إثبات وجهة النظر الشخصية ؛ بل هى لا تعدو أن تكون بمثابة مجموعة غير منظمة من « أن يفعل وأن ينفعل » بحيث يكون كل طرف متمماً للآخر . فشريك الطفل هذا ينفصل عنه ،

غير أن هناك تعادلاً جوهرياً بينهما ، فحركات كل من الطرفين وتأثراتهما هى هى مع فارق بسيط فى زمان حدوثها . بل قل إذا شئت إن هناك فردين ولكنهما متماثلان تماماً بحيث يمكن أن يقوم أحدهما مقام الآخر ، ولما تكتسب الذات إزاء الآخر هذا النوع من الاستقرار والثبات الذى يبدو لنا ضرورياً لتحقيق الشعور الذاتى وتقويم الشخصية .

غير أن مرحلة التناوب تسمح للذات فى نهاية الأمر أن تتخذ موقفها الخاص بصدد الآخر . وفى غالب الأحيان تتخذ هذه المرحلة الجديدة شكل الأزمة الحقيقية ، أزمة الشخصية التى تظهر حوالى سن الثالثة . فتكاد ألعاب التناوب والتبادل[1] تختفى فجأة وخاصة هذه المحادثات التى تجرى عند كثير من الأطفال بين الطفل ونفسه بحيث يقوم على التناوب بدورى المتكلم والمخاطب ، موضحاً بحماس صوت كل منهما ، وقد تظل نغمة الحديث واضحة فى حين تفقد الكلمات معناها حتى تكاد تتحول إلى لغط . أما بعد انتهاء هذه الأزمة ، فبدلا من أن يؤدى الطفل دورين متناوبين يتخذ حديثه صورة الحديث الشخصى فيسرف فى استخدام ضمائر المتكلم المفرد .

وهو يثبت ذاته خاصة بمقاومة غيره . وتظهر هذه المقاومة بمناسبة و بدون مناسبة ، فهى إذن مقاومة صورية تبدو كأنها مطلقة ، غير أنها فى الواقع مجرد مخالفة لموقف الآخرين أو ما يظن الطفل أنه كذلك . فهى فى نهاية الأمر مقاومة نسبية ، وما زال الذات والآخر يتمان أحدهما الآخر ، ولكن الطفل سيجتاز مرحلة تناوب الأدوار إلى مرحلة التمسك العنيد بأحد الطرفين دون الآخر . ولكن لابد من أن يتجسّم هذا التمييز ، والواقع أنه يتجسم فى أول الأمر فى تمييز الطفل بين ما يملكه هو وما يملكه غيره ، أى فى الأشياء قبل الأشخاص .

كان الطفل حتى هذه المرحلة يشتهى كثيراً أو قليلا كل ما يراه فى أيدى الآخرين . ويرجع هذا الاتجاه إلى ميله إلى المحاكاة وإلى أن يحل محل الآخرين ، وفى

(١) كأن يقوم الطفل إزاء نفسه بدور الأم تارة و بدور الإبن تارة أخرى ، أو بدور اللص ثم بدور الشرطى ، أو بدور التلميذ ودور المعلم الخ . . .

هذا دليل على أنه لا يزال يخلط بين ذاته والآخر . وعند ما يتم التقابل بينهما تظهر ضرورة الاقتسام التى كثيراً ما تتخذ شكل الاعتراض على الاقتسام . ولا يبغى الطفل استخدام الأشياء فقط بل امتلاكها ، وقد يبغى الامتلاك لذاته ، امتلاك أشياء لا تثير فى نفسه أى رغبة تلقائية . ويقوم هذا الميل إلى الامتلاك فى أول الأمر على دافع المنافسة ، فيريد الطفل امتلاك ما هو باعتراف الجميع ملك الغير ؛ فيلجأ إلى العنف تارة وإلى الحيلة والكذب تارة أخرى لكى يضم ما يملكه غيره إلى دائرة ممتلكاته ولا يشبع الطفل ميله هذا إلا إذا قبض عليه وهو متلبس بذنبه بحيث تتضمن عملية الخطف والسطو التى يقترفها الطفل تمييزاً واضحاً كل الوضوح بين ما له وما للآخرين .

وفى أثناء هذا الطور الذى يميل فيه الطفل إلى المقاتلة تتضح الذات لذاتها فى الوقت عينه الذى تعارض فيه كل شىء سواها . ويتجه هذا الطور نحو حالة من الهدوء كلما قويت واستقرت حدود ما يتضمنه هذا الطور من أشياء خارجية مادية أولاً ، ثم من دوافع وأفعال وأفكار وروية . والواقع أن الطفل يظل طويلاً قبل أن يعرف يقيناً إذا كان يأتى أفعاله حراً مختاراً أو بتأثير قوة خارجية ، وإذا كانت استدلالاته تلقائية أو موحى بها إليه . ولكن على كل حال وبدرجات متفاوتة من التأكد أو الشك يعتبر نفسه حراً مستقلاً ، أى أنه يعتقد أن الآخرين منفصلون عنه فى الخارج تمام الانفصال وأن ذاته كاملة سليمة .

يبدو إذن أن آثار حالة الاختلاط الأولى قد زالت وأن الشخص أصبح كلا مغلقاً واضح الحدود . وهذا هو على أقل تقدير مايدعيه الشخص عن نفسه . والواقع أن ما يحدد الشخص ويفصله عن غيره لا يعدو أن يكون حداً مثالياً تختلف عنه الحقيقة السيكولوجية اختلافاً محسوساً .

* * *

يمكن تشبيه الشعور فى حالته الأولى بسديم تنتشر فيه بدون تحديد خاص أفعال حسية وحركية ، سواء نشأت من تأثير خارجى أو داخلى . ثم ينتهى الأمر بأن

يظهر تدريجاً فى كتلة السديم نواة تكثيف هى الذات ، بل يظهر أيضاً ، ما يمكن تسميته بالتابع وهو « ما تحت الذات » أو « الآخر »[١] . ولايكون توزيع المضمون النفسى بينهما ثابتاً بالضرورة ؛ فقد يختلف هذا التوزيع تبعاً للأفراد وللسن أيضاً فى الفرد عينه ، كما أنه قد يختلف فى بعض الحالات التى تكون فيها الحياة النفسية مضطرة إلى الاختيار بين أمرين . وقد توشك الحدود الفاصلة بين الذات والآخر أن تمحى فى بعض حالات الصدمات النفسية والذهول العقلى ، فتمتص الذات فى الحال ما كان منسوباً إلى الآخر ، كما قد تفقد الذات سيطرتها فيستولى عليها « الآخر » .

وقد يعانى الشخص البالغ السوى أحياناً لحظات يشعر فى أثنائها أنه قابض على زمام نفسه بكل ما أوتى من حرية و إرادة ، كما أنه قد يعانى لحظات أخرى يعتقد فيها أنه مسيَّر إلى حد ما بعوامل يجهلها وأنه أكثر خضوعاً لتأثيرات الآخرين و إراداتهم ونزواتهم أو لضرورات تفرضها عليه المواقف التى يكون فيها مشتبكا مع غيره من الناس . ومثل هذه التبدلات أكثر وضوحاً فى الطفل وهى التى تسبب لديه أزمات الثورة والعصيان وقد لا تكون غايتها أحياناً سوى معارضة سلطة ما يعتقد الطفل أنها سلبته هذا الاستقلال الذى كان يجعله يدبر شئونه بنفسه .

ولا شك فى أنه يمكن القول أن هذا الوضع لايعدو أن يمثل الصلة التى يمكن أن تنشأ بل التى يجب أن تنشأ بين أشخاص مختلفين بعضهم عن بعض أو بين الفرد و بيئته الحقيقية ، وأن هذه الصلة هى بمثابة ما يتبادله الأفراد من تأثيرات تتفاوت درجة اندماج بعضها فى الآخر أو درجة خضوع أحد الطرفين للآخر . غير أن هذه الصلة لا تتم إلا بوساطة شبح الآخر ، هذا الشبح الذى يلازم كل واحد منا فى قرارة نفسه . وما يعترى هذا الشبح من تغيرات فى الشدة هو ما يعين مستوى علاقاتنا مع الآخرين . وهذه العلاقات بدورها تنظمها عوامل مختلفة ، منها عوامل

(١) يذكر هذا التقسيم بتقسيم فرويد بين « الأنا » واللاشعور . ويمتاز اللاشعور ، مما يمتاز به ، بأنه لا شخصى وغريب فى نظر الأنا

داخلية عضويه كالتوتر العصبى السمبتاوى[١] ودرجات متفاوتة من النشاط النفسى الحركي الفياض[٢] الخ . . . فعلى هذه العوامل يتوقف التوازن الأساسى لعلاقاتنا بالآخرين ، مع مراعاة ما يقتضيه النشاط الطبيعي من حركات التكيف للظروف الخارجية .

ولا يعدو أن يكون الأشخاص الذين يحيطون بالمرء بمثابة مناسبات أو أسباب تسمح للشخص بأن يعبر عن نفسه ويحقق ذاته . ولكن إذا كان فى قدرته أن يضفى على هؤلاء الأشخاص صفة الحياة والتماسك خارج ذاته ، فلا يتم ذلك إلا لأنه ميز فى ذاته بين هذه الذات وما هو ضرورى لتكميلها : أى هذا الغريب الجوهرى الممثل فى « الآخر » .

وليس التمييز بمثابة تخطيط مجرد للعلاقات العادية التى قد يقيمها الشخص مع أشخاص حقيقيين ، بل هى نتيجة انفصام عميق بين طرفين لايمكن أن يتقدم أحدهما بدون الآخر مع كونهما متعارضين أولكونهما متعارضين . والطرف الأول هو إثبات الشخص ذاتيته وهويته ، وأما الطرف الثانى فهو كل ما يجب طرده من هذه الذاتية لصيانتها[٣] .

وفى جهادها نحو تحقيق فرديتها ، لايسع الذات إلا أن تضع نفسها فى مقابل المجتمع الذى يتخذ شكلا بدائياً جنينياً ؛ وقد أطلق پيير جانيه[٤] على هذا الطرف الثانى

---

(١) أى حالة التوتر التى تكون عليها الأحشاء كأعضاء الجهاز الهضمى والجهاز الدورى والجهاز الغددى . (٢) أى مايبديه جهاز العضلات المخططة المحيطة بالهيكل العظمى من استجابات سريعة قوية ، سواء لمنبهات داخلية أوخارجية .

(٣) سيتضح ما يقصده الدكتور ڤالون هنا فى الجزء الأخير من مقاله عند عرضه لحالات الشذوذ والانحراف حيث يتحرر من سيطرة الذات هذا الغريب الذى يأوى إلى أعماق نفوسنا ، والذى يسميه المؤلف « الآخر » أو شبح الآخرين . وربما أمكن تفسير حالة الشاعر الذى يستوحى « شيطانه » فى ضوء هذه النظرية . ومن المحتمل أن يكون الشاعر فى أثناء تلقى الإلهام شبيهاً بالطفل مع مراعاة ما توجده « الصنعة » من فوارق

(٤) Pierre Janet (١٨٥٩ —) من أشهر علماء فرنسا فى الطب العقلى وعلم النفس . درس خاصة حالات الهستيريا والبسيكاستانيا psychasthénie

لفظ «الشريك»[١] . ويكون الفرد، عند مايدرك أنه فرد، كائناً اجتماعياً فى جوهره لا نتيجة ظروف خارجية اتفاقية قد تعرض له أو لا تعرض، و إنما بحكم ضرورة داخلية، أى بحكم تكوينه ونشأته .

* * *

« الشريك » أو « الآخر » يشارك الذات على الدوام فى حيانها النفسية . ويكون فى الظروف العادية متضائلا غير ظاهر ، مكبوتاً كأنه موضع إنكار ونفى من جانب إرادة السيطرة والتكامل التى تصاحب الذات . ولكن أليست كل مداولة وكل حيرة مخاطبة غير صريحة أحياناً بين الذات وما يعارضها . ففى حالات الشك وفى الظروف العصيبة التى تلزم المرء وتقيد مسئوليته بطريقة صارمة ، قد تصبح المخاطبة صريحة و بصوت عال بعد أن كانت داخلية خافتة . فمن الأشخاص من يوجهون الأسئلة إلى أنفسهم ويجيبون عليها بحماس وأحياناً بعنف متزايد كأن الحديث يجرى بين عدوين : وفى مثل هذه الحالات هو الشخص ذاته الذى يجيب على أسئلته . أى أنه لايزال يسيطر على الشخصية الأخرى ويخضعها لذاته كأنها ملك له حتى فى الحالات التى تقوم فيها الذات بدور الآخر والآخر بدور الذات . و بفضل حركة التناوب هذه تظل وحدة الذات مصانة ولو فى الظاهر .

غير أن هذا الشعور بالثنائية قد يزداد حدة . ومن أمثلة هذه الحالة « شيطان » سقراط الذى كان يبدو له كأنه وساطة تقبل عليه من الخارج كلما جد الجد وحزب الأمر لتصرفه عن عمل كان متردداً فيه . وقد تكون الأصوات التى كانت تسمعها

---

(٣) يستعمل پيير جانيه اللفظ اللاتينى socius للاشارة إلى الطرف الاجتماعى الذى « امتصته » النفس فى أثناء الطفولة امتصاصاً لاشعوريا. أما معنى socius باللاتينية فهو صاحب ، زميل ، من يشاطرك الخير ومن يقيم معك فى الدار نفسها . ويبدو لنا أن لفظ « شريك » يفيد إلى حد ما المعنى المقصود فى هذا النص بشرط أن نضع نصب أعيننا المعنى الأصلى للشركة وهى اختلاط النصيبين فصاعداً حتى لايتميز الواحد عن الآخر. ويستعمل أيضاً لفظ socius فى لغة علم نفس الحديث للاشارة إلى الشخص من حيث هو وحدة اجتماعية تشترك مع الآخرين فى الصفات الاجتماعية عينها ، وبهذا المعنى يقابل لفظ socius لفظ personality الذى يمثل الصفات الذاتية التى تميز الواحد عن الآخر.

جان دارك ، على الرغم من التأويل الصوفى الذى تؤول به غالباً ، من قبيل هذه الثنائية النفسية .

وتشبه هذه المحادثات التى تدور بين الشخص والشريك أحاديث الطفل مع نفسه وهى التى تختفى عند ما يقترب من سن الثالثة أى عند ما تأخذ الذات تثبت نفسها . ويتم هذا الاختفاء بالخفض لا بالإزالة التامة . وما يبدو أنه أزيل لا يزال فى الواقع حياً ولكن فى حالة من الكمون أو بعبارة أدق لا يزال يؤدى دوراً ثانوياً . وهذا بلا شك ما استغل فى التجارب المتعلقة بالشخصيات المزدوجة أو المتعددة — مع العلم بأن هذه التجارب لاتخلو من الشبهات وهى على كل حال مهملة فى الوقت الحاضر — ويدعى أنصار التنويم المغناطيسى والإيحاء أنهم يكشفون هذه الشخصيات المتعددة فى شخص واحد وأنه فى إمكانهم أن ينموا تلك الشخصيات . فلا بد من أن يوجد فى الواقع نقطة ولو ضئيلة ترتكز عليها أكثر المحاولات تصنعاً وأكثرها غرابة .

غير أن هناك آثاراً ومظاهر ، هى بكل تأكيد مرضية ، لا يمكن أن تشاب بشائبة الخداع والدجل . ومن أمثال هذه الآثار ما سماه الدكتور دى كليرامبو[1] بالآلية الذهنية[2] وقد وصفها وصفاً إكلينيكياً دقيقاً مبيناً كيف ينتج عن تحرر هذا الآخر الذى يحمله كل منا فى ذاته ، تحرراً يكاد يكون آلياً مادياً ، ما يعرف بأفكار التأثير[3] أو المس . ولا يفقد هذا العرض المرضى دلالته الوظيفية حتى ولو بدا لنا أن هذه الأفكار ليست من أصل نفسى وأنها تزداد شدة بازدياد الاضطراب العضوى ؛ ولا يبعد أن تكون تابعة لتغيرات خاصة فى الجهاز العصبى .

وقد بين كليرامبو أنها ليست دائماً فيما يبدو — أو على الأقل فى أغلب الأحيان —

---

(١) G. De Clérambault (١٨٧٢ — ١٩٣٤) عالم فرنسى فى الأمراض العقلية . اشتهر بدراساته الإكلينيكية لحالات المس التى يحس فيها المريض أن هناك شخصاً آخر أو قوى خارجية غريبة تسيطر على عقله وتوجهه .

(٢) automatisme mental (٣) idées d'influence واللفظ العربى « مس » يفيد تماماً هذا المعنى .

نتيجة الاجترار الذهنى[١] الذى يؤدى إلى تفكك الشخص تحت تأثير هموم ثقيلة قد يكون هناك ما يبررها أو قد تتخذ شكل الهذيان . فالمريض كثيراً ما يسمع فى أول الأمر أن شخصاً يناديه فجأة ، موجهاً إليه أغلظ التهم وأشنعها مما يهين الشخص فى علاقاته الاجتماعية . ويتخذ « الآخر » عندما يتحرر موقفاً عدائياً ، كأنه يثأر لنفسه من حالة الخضوع التى كان يريد الشخص أن يفرضها عليه على الدوام . وهكذا يحاول المريض أن يعبر بطريقة صريحة بوساطة الشريك أو الآخر عما امتلأ به نفسه من الريبة وعدم الثقة خلال علاقاته الاجتماعية ، ويتخذ هذا التعبير فى أول الأمر شكلاً غامضاً عنيفاً غفلاً .

وتعقب هذه المظاهر الأولى مظاهر أخرى يردد فيها « الآخر » ما يفكر فيه المريض : فيشكو المريض من أن « الشريك » يفشى ما يخطر له من أفكار خفية ، بل يتنبأ بهذه الأفكار ويصرح بها قبل أن يشعر بها هو شعوراً واضحاً وقبل أن تتاح له الفرصة للتفكير فيها من تلقاء نفسه واعتبار نفسه مسئولاً عنها . فيفرض عليه الآخر فكرة لا يشك المريض فى أنها ليست فكرته ويملى عليه ما يجب أن يفعل إلخ ... وغالباً ما تكون هذه المظاهر المرضية تابعة لقانون التضاد . وقد بينت فى غير هذا الموضع فى كتابى « نشأة الخلق عند الطفل » أثر هذا القانون فى مراحل التكوين العقلى الأولى حيث يحوى كل فعل ما ينقضه ويتضمن حدين متضادين ، ولا بد من هذا التضاد لكى يكتسب المضمون العقلى ما يميزه من صفات بنائية .

وقد يتجاوز هذا المسّ الأفكار والأفعال والعواطف فيصيب الأعضاء نفسها . فالآخر الذى كان قد طرد من الشعور العضوى العام يعيد الكرة محاولاً غزو الشعور العضوى للاستيلاء عليه . فيستولى من أعضاء الكلام على الحنجرة والصدر كما يستولى على أعضاء الحركة . وقد قال هوجلنجز جاكسون[٢] إن المرض لا يخلق

---

(١) rumination mentale والترجمة هنا حرفية . راجع هامش ص ٢٥٣ رقم ٤ ما ذكرناه عن الانطواء الذاتى والتفكير الاجترارى .

(٢) Jackson Hughling (١٨٣٤ — ١٩١١) من أبرز علماء الإنجليز فى علم الأعصاب وأمراضها وأول من وضح نظرية مستويات الجهاز العصبى الوظيفية وكيفية تآزرها =

شيئاً ، بل يحرر من رقابة الوظائف العليا الموجِّهة الوظائف التى تكون فى العادة خاضعة لها . فلا يحدث المرض مظاهر مقطوعة الصلة بالتوازن السوى بل يفكك هذا التوازن بحيث يقوم كل عنصر من عناصره يعمل منفرداً لحسابه الخاص . وفى ضوء ذلك يجب تأويل هذيان المسّ. فالذات التى كونها الشخص بكل ما هو مألوف لديه و بكل ما هو خاص به تتحطم حدودها فتغزوها وتنتهك حرمتها قوى تعبّر عن كل ما طردته الذات وأنكرته . وفى مقاومة الأجنبى مايقوى الشعور بالوحدة الذاتية ، غير أن الشخص الممسوس يحس وكأن شخصيته تغيب عن نفسها وتتفتت فتنشأ عن تفككها مظاهر متعارضة على الرغم من صدورها عن شخص واحد .

تبين لنا هذه المظاهر المرضية كيف يغزو الشريك الذات عنوة ، مما يقيم الدليل على وجوده . وعند ما يكون الشعور سليماً يحيا الشريك حياة كامنة ومضغوطة على الدوام ، غير أن أثره فى الشعور لا ينعدم أبداً . فيصاحب الشريك الشعور فى شتى حوادثه وقد يعين أحياناً هذه الحوادث ، كما أنه يعدل من توتر الشعور فى صلته مع الغرباء محدداً موقفهم من الذات . و يقوم الشريك أخيراً بدور الوسيط الأساسى الخفى الذى يصل بين الذات والآخرين . وسبق لى أن وضحت فى المحاضرات التى ألقيتها هذا العام (١٩٤٥ — ١٩٤٦) فى الكوليج دى فرنس كيف يمكننا فى ضوء هذه العلاقات القائمة بين الذات و بين « الآخر الخفى » الذى بدونه تظل الذات ناقصة ، أن نفسر أو نلاحظ الحالات الشعورية البسيطة أو المعقدة التى تتراوح بين الصحة والمرض . و بهذه الكيفية يمكننا أن نربط بتطور الشعور الشخصى السوى لدى الطفل جميع المظاهر المختلفة التى تجعل من الإنسان كائناً اجتماعياً فى صميمه وجوهره .

= وتكاملها . وقد تأثر بتعاليمه العلامة شارلز شرنجتون فى كتابه عن وظائف الجهاز العصبى التكاملية والعلامة هنرى هد فى بحوثه عن اضطرابات الوظيفة اللغوية .

Note

Traduction arabe par Youssef Mourad de l'article du Dr. Henri Wallon : Le rôle de l'*autre* dans la conscience du *moi*, publié dans le No. de Juin 1946 de ce Journal.